اخبار حلب وحوادثها

من السنة ١٨٥٥ الى السنة ١٨٦٥

اخذاً عن يومية المعلّم نعوم البخّاش

المخطوطة الوحيدة ، نشرها وعلق عليها

الاب فردينان توتل اليسوعي ٨

ذيل

تم الكتاب بعونه تعالى ونشر بهمة المطبعة الكاثوليكية فسهُل لمطالعة القراء وبرز بحلة قشيبة وضّاحة بعد ان أُجهدت العينُ في قراءة متنه الدقيق المكتظ على ورقه الاصفر الذابل وأُعملت الانامل في غربلته وتنقيحه وطرح ما لزم طرحه منه كما اشرنا الى ذلك في المقدمة وقد تركنا المخطوطة في المكتبة الشرقية في كلية القديس يوسف في بيروت مرجعاً لمن شاء الزيادة على ما رويناه . وساعدتنا الظروف فاقمنا في حلب الاشهر الطوال تسنّى لنا في غضونها التفتيش على الوثائق القديمة نعثرنا على طائفة منها فادرجنا منها ما ادرجناه في حواشي تغلغلت في اليومية تغلغل النمل في غبار الحوادث على مدة عشر سنوات تقريباً ١٨٥٥—١٨٦٥

على شتات تلك المواد المتناثرة لا بد من القاء النظرات العامة فنلم «الغبار» ونجمعه في طينة مرصوصة تكون كاللبنة في البناء خدمةً لمن يضمون تاريخ الشهباء . فهي صفحة منه في الاحوال الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية وذيل لليومية وحواشيها وتكملة للمقدمة واصل للمقال الافرنسي الذي سينشر في المؤلَّف المطبوع على حدة تقريباً سناله الى المستشرقين .

في هذا البحث سوف نستعين بالتعليقات التي نستفيدها من تبويب الاعلام وترتيبها طبقاً لصيغتها ومعناها المتصل اما بجنس المسمّى او بصفته او بصنعته

وبسائر المفردات المذكورة في الفهارس وقد وفقنا في نقلها الى الافرنسية خدمةً لمعجم اللغة وللمستشرقين .

الحالة الطبيعية

ان سكان بيروت وطرابلس وصيدا وغيرها من مدن وقرى الساحل اللبناني يجدون في القرب منهم شرقاً الجبل ومنتزهاته بين هضاب وحزون في ظل الاشجار وعند مجاري المياه وغرباً البحر وافقه الواصل بينهم وبين شواطئ المتوسط الرابط بينهم وبين شعوب الارض فيستمدون من مواقعهم الطبيعية مرافق الفسحة والرغد والعشرة والانس مما يغنيهم عن العلاقات المتواترة بينهم . ورب مستوطن بيروت عاش فيها الاعوام ولم يتصل باهل الحي من جيرته وهو أعلق باهل القرية التي نزح منها الى الساحل منه باهل الاحياء التي تعج بسكان أتوها من مشارق البلاد ومغاربها . والى تلك القرية مسقط راس الكثيرين نحن سكان مدن الساحل ويعودون اليها في مواسم الاصطياف وينسون فيها هموم الاشغال والمتاعب .

اما حلب على ما يطوقها من الاخضرار المعنف بها عند مجاري مياه قويق ومصبات قناة حيلان فشهباء هي ومحيطها صحراوي فلا رياض ولا غاب وافقها واسع فسيح الا في الناحية الغربية حيث منحدرات جبل سمعان ولا ماء الا ما يروي الانسان والحيوان احتساباً ويقصر عن احياء النبات حياة وافرة بهيجة .

نعم ان للقويق وثباته وطغيانه وقد يرمقه المعلم نعوم البخاش بعين ساهرة لا ليتوقع الحالة المناسبة للصيد فقط ولكن لكي يسير ايضاً بتلامذته الى « جبل النهر » فيدلهم على الحد الذي يبلغ « الطوفان » ارتفاعاً عند طاحون « الجميلات » فيلاحظ تلوّن الماء بين احمرار واضطراب ويدوّن ملاحظاته « اليومية » كانه يترجم لقول الشاعر وقد رواه كامل الغزي في « نهر الذهب في تاريخ حلب » في الجزء الاول الصفحة ٥١ فقال :

« قويق اذا شمّ ريحَ الشتا اظهر تيهًا وكبرًا عجيبا
ومسائل دجلة والنيل والفرا ت جاء واطفأ وحسًّا وطيبا
وان اقبل الصيف ابصرته ذليلًا حقيرًا حزينًا كئيبا

اذا ما الضفادع ناديته قربق قربق ابا ان يجيبا
وغنى الجرادة فيه فلا تكاد قوايها ان تنيبا

فلم يكن النهر موردًا يغني السكان عن طلب النزهة والانشراح في مواضع سواه .

وكانت ظواهر البلد واتخاؤها مجدبة مقفرة وبساتينها قليلة المياه ليس فيها ما يستهوي قلوب الاهالي شأن المتنزهات في لبنان وكان لا بد ان يكتفي الحلبيون بما لديهم من وسائل الراحة ضمن حدود المدينة فضلًا عن ان قلة الامن كانت ترد الاهالي الى داخل البيوت فيجبسونها ويتأنقون بزخرفها وزينتها ويلجأون اليها فيستأنسون بعشرة الجيرة والاقارب ويتفننون في اختراع وسائل التسلية والمسرة في محيطهم الضيق واذا حدثتهم النفس بالخروج من البلدة فلا يخرجون الا زرافات يتحامون بعددهم من قطعة الطرق.

ذلك ما ادّى بالبخاش الى الاصطحاب بين ذكرهم من رفقته واذا سمع ان الامن غير مستتب في ناحية عدل عنها الى غيرها وحول وجهته من المسلمية الى الوضيحي وكان يُعد جريئاً مقحاماً شاذةً من الشواذات في ولعه بالصيد والتنزه وارتياده البساتين . اما سائر الحلبيين فكان ذرو النعمة منهم « يبستنون » في السنة مرة او مرات معدودة وربما ادت الاخريات،ولم تزل الى يومنا تؤدي،فرصة يتخذها بعضهم للتمتع بالفسحة واستنشاق الهواء الطلق ولهم في عددهم مأمن من عداوة الاعداء . وللبخاش نكتة مملحة في هذا الصدد : رُوي عن جماعة خرجوا الى البستان وكانوا قد اوصوا على العشاء من رز ولوبية او فاوله وفراريج مشوية وأرسل لهم العشاء بثلاث طناجر لما جاء قوم سرقوا الطناجر وبات المبستنون ولا طعام لهم غير العشاء الا الخبز و« الجبس » [١١٣] .

وان في الكلام على موقع حلب الجغرافي وحالتها الطبيعية سبيلًا الى سرد اسماء الاثمار والنبات التي جاءت في اليومية وهي محصولات حلب الطبيعية.

من اجاص واكيدنيا وبابونج وبرتقال وتفاح وتوت وتين وبصل اخزاما وبنفسج وتمر الحنة وجبس وحصرم وحنطة وخس وخشخاش ورمان وزعرور وسمر وعنب وعنب فيوعي وفاوله وفستق وقطن وقلب الطير وليمون ومشمش

ونسرين ونعناع .

وكذلك اسماء الحيوانات من طيور كالبومة والترغل والدالول والدج والزرزور والسمرمر والصفري والفرخ المكحل والقوال .

ومن الحيوانات الداجنة كالجمل والحمار والبغل .

ومن الدبابات كالجرادة والزلعطان والعلق .

اما الاسماك وقد ذكرت في اليومية فقد وفقنا الى الحصول على تسعة انواع منها فصورناها ولم يضبط قياسها بالطول والعرض لانها تنمو ويتفاوت حجمها مع تفاوت عمرها ومع ذلك فلاحجا مفيدة لتعيين هويتها في سبيل وضع اسمائها اصطلاحاً عن الصيادين الحليين وهم احق من غيرهم بان يعرفونا بها فتندمج في القاموس وحالت ظروف الحرب الحالية دون استفتاء استاذ علم الحيوان في معهد الطب الافرنسي لمعرفة مرادفاتها باللغة الافرنسية واليك صورها والارقام تدل على الاسماء .

١ قاصورة	٤ براق	٧ تريس
٢ برميد	٥ تقل	٨ عريسه
٣ بني	٦ سلال	٩ انكليزي

واضف الى هذه الناحية من النظرات العامة ما جاء عن اسماء الامراض والمقاقير وعن التعليمات المفيدة اساليب الطب في ذلك الزمان .

فمن اسماء الادوية والمقاقير تمر هندي جاي خيار جنبير دهن القبار راوند زيت خروع طعم الفار عنبر بغداد كحل كوكرت معجون الورد ملح طرطير .

ومن اسماء الامراض حرسان حماوة داي طاعون ما شرها هوا اصفر وباء هزة الحيط ابو خبيط .

ومن الاعلام الواردة في اليومية ولها علاقة في احوال البلد الطبيعية ما دل على حيوان وجاء مستعاراً لما بين المسمى العاقل والغير العاقل من التشابه في صفة حسنة او سيئة وانما الغرض من ذكرها في هذا المقام اتصال الاسم بمفردات علم الحيوان والدليل على وجود المسمى في البلاد .

فمنها ما اخذ عن الطير كبازي وحسون وديك وقاق .

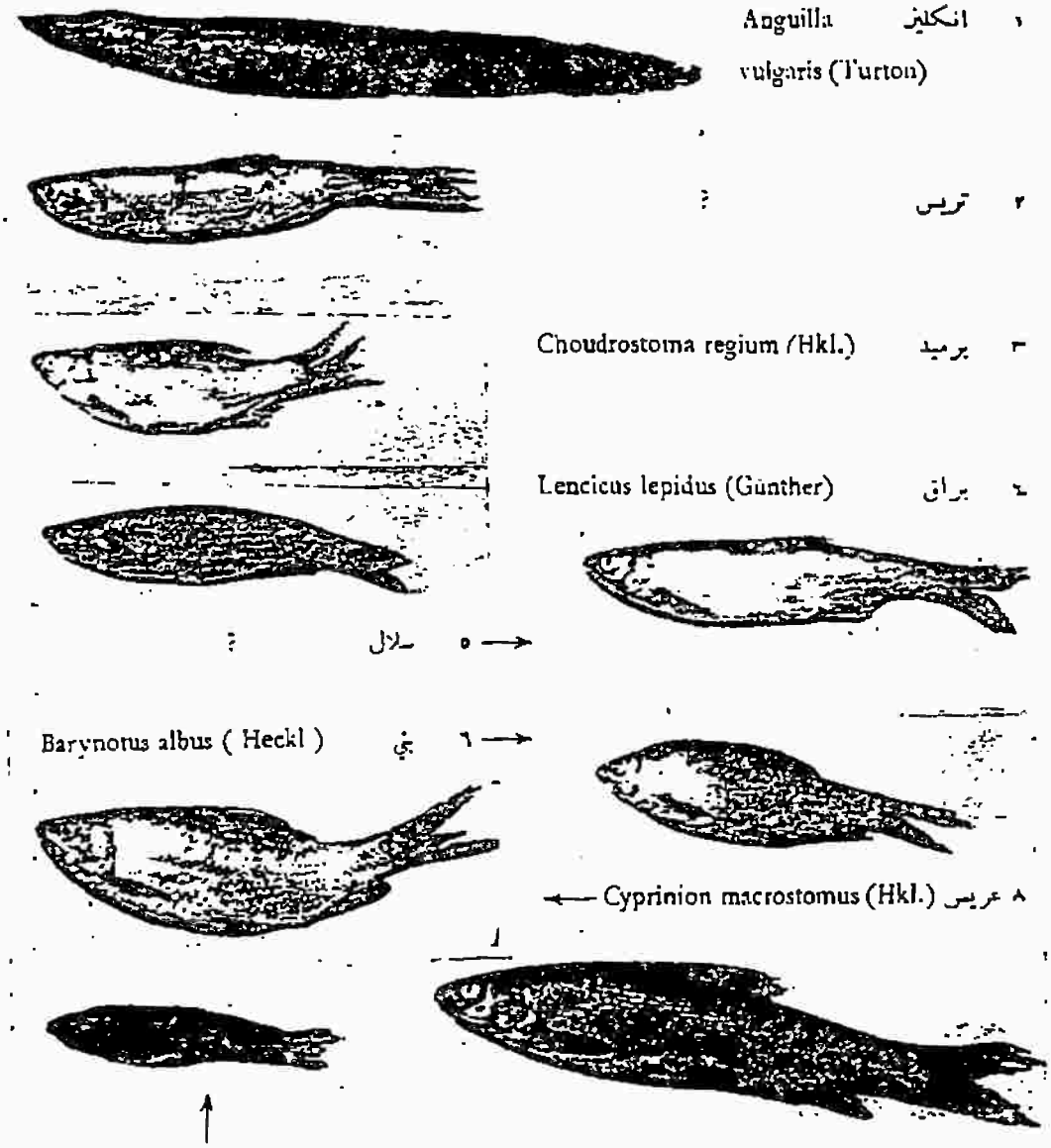

تنبيه – لما كان باعة السمك لم يجمعوا رلهم على اسم معين لكل سمكة ينفردها بل اختلفوا عليه عد احياء رأيهم على اطلاق الاسماء التي على السمكات المصورة اقتضى التنبيه الى موضع الشك . اما الاسم الافرنجي فموافق تمام الموافقة للصورة والفضل في تعيينه الى الاستاذ بيير (P. Bey) من الكلية الطبية الافرنسية في بيروت .

او عن حيوانات داجنة كجروة وجمل وغزالة او ضارية كذياب وسبع ودب او عن حشرة كدبانة .

وما اكثر ما وجد من امثالها في اسماء الناس عند الشعوب القديمة والحديثة وخاصة عند العرب. راجع في هذا الموضوع: أدب الكاتب لابن قتيبة الدينوري المطبوع في هامش كتاب : المثل السائر لابن الاثير مصر ١٩٣٥ وقابل بين ما قلناه وما جاء في الكتاب المذكور من اسماء الناس المسمّين باسماء النبات والطير والسباع والهوام (ص ١١ وما بعدها).

الحالة الاجتماعية

ذكر البخاش عدداً وافراً من الاعلام في اليومية ولم يظهر في هذه الاعلام غالباً الا المسيحية ويضرب صفحاً او يكاد عن غير المسيحيين وأما بين هؤلاء فيخص بالذكر ابناء طائفته وبعض من تعرف اليهم من غير طوائف بواسطة تلامذته واهاليهم وعلاقاته معهم وقد يفيدنا بحث السبب في ذلك الايجاز لما فيه من النظرات النافعة درس حياتنا الاجتماعية .

نقد قيض لهذه البلاد ان تكون منقسمة عشائر وطوائف ومذاهب منذ القدم. ولما فتحها العرب لم يغيروا حالتها وزادوا على الطوائف الموجودة فيها طائفة او طوائف جديدة بظهور الدين الاسلامي فيها. واحتل الاتراك البلاد فايدوا نظام الطوائف واغنت العاطفة الطائفية الاهلين عن الاهتمام بفكرة وعاطفة وطنية جامعة كما تعرف في البلاد الغربية .

فعاش السوريون على مدى القرون طوائف وما بينهم بعد الفتح الاسلامي صارت الطائفة الاسلامية تتمتع باكثرية العدد وبنفوذ الحكام ودينها معروف كدين البلاد الرسمي وشرعها القرآني اساس في التشريع بما يخص الاحوال الشخصية وفي حكمه يعيش سكان البلاد من سائر الطوائف.

وكان البخاش على بساطة علمه فطناً ذكياً عارفاً بما جاء في كتب الشرع الاسلامي عن الاحكام في اهل الذمة مما لا يُنادىَ به عادةً على رؤوس الملا ولا ينشر في الجرائد وقد صار بعض المعاصرين يحسبونه مطوياً في طيات الاوراق

منسوخاً منسياً ؛ ولكن ما ان تحدث ازمة سياسية الا ويُسمع القول به وهو قريب المنال للقراء مطبوع ليس في الكتب الادبية الموضوعة للعامة ايضاً فاقرأ في هذا الصدد المستطرف في كل فن مستظرف للابشيهي (الفصل الثاني من الباب الحادي والعشرين) وكن على بصيرة من الامر. هي الاحكام والاقوال المنسوبة الى عمر بن الخطاب والخليفة المتوكل وغيرهما . لقد اكل الدهر عليها وشرب وألفيت او كادت ولكن تأثيرها لم يمح بعد من حياة البلاد الاجتماعية وانا نحن منها كالجرح اذا ضمد سكن وجمه وهدأ وما ان يُنكأ حتى يدمى ويؤلم لان اثره باق ولم يشفَ الشفاء التام . ذلك ما احس به نعوم البخاش كما احس به المسيحيون في البلاد التي لا حقوق مدنية لهم فيها الا بذمة المسلمين. وكانت لسوء الحظ حوادث الخمسين قد وقعت منذ عهد قريب وقد شاهد معاصرو البخاش كما شاهد هو ايضاً بام العين تدمير الكنائس وذبح الابرياء وسلب البيوت وحرقها ذلك ما جعل في قلبه خوف الحمل من ذكر الذنب تجاه فئة غير قليلة من سكان البلد. فكان في كل عيد « الله اكبر » يتوقع شراً جديداً ويذكر « تُرين » المسلمين واني اذا ما تكلمت عن الامر لا انسى ان عدداً وافراً من المسلمين يعيشون وايانا في السلام والمحبة والمجاملة بالخير لكن للحقيقة التاريخية حقوقها والامر الواقع شاهد على ان في حلب التي تعد اليوم زهاء ٣٠٠ الف نسمة ينفصل فيها الجزء الشرقي عن الجزء الغربي لا باودية وجبال ولكن بحواجز امنع من الانهر والصخور انما هي الحواجز الاجتماعية . ان مظاهرها موصلة بعادات واخلاق موروثة وقد يكون عنوانها حجاب النساء وطرق السكنى التي يتميز بها بيت المسلم من بيت المسيحي الى غير ذلك مما يجعل الاحياء المسيحية والمسلمة تكاد تكون ، في وجوه عدة ، اجنبيةً بعضها تجاه البعض . نعم ان الجميع يتمتعون بنور شمس واحدة ويستنشقون هواء جوّ واحد ويشربون مياه بلدة واحدة ويتكلمون لغة واحدة ولكن لقد شاءت الاقدار ان فئة من البلدة لا تختلط بالفئة الاخرى . ان هناك حرفة القصابين لا يحترفها غالباً الا المسلمون وغيرها كحرفة الحبالين والدبّاغين مما يلجئ المسيحيين الى التعاطي مع جيرانهم من غير ديانتهم في هذه المعاملات وفي غيرها مثلها. ورب شاب مسيحي

على المسلم ومسلم لمسيحي بغاية الاخلاص ولكن تلك العلاقات وامثالها لا تتجاوز حدّ الاخذ والعطاء والمجاملة بالحسنى اما الاتصال الباطني المترتب على امتزاج الدم بالزيجات وبالاختلاط في العوائد والاخلاق فلا وجود له. وعلى هذه الروح ربيت الناشئة ؛ شئنا ام ابينا !

ذلك هو السبب الاساسي الذي حوّل نظر البخاش عن احوال المسلمين فقد جهلها او تجاهلها ولم يدونها اليومية خشية محذور اذا ما وقعت في ايدي من لم يستطيبوا قراءتها فدسوا الدسائس ورفعوا الشكوى عليه. ولا ننسى ان في ذلك العصر وبعد عهد البخاش بسنوات قُبض على جبرائيل دلال وحبس ثم مات في الحبس لما القي عليه من الشبهات في كتابات لم ترض عليها السلطة فتمثل صاحب اليومية بقول الشاعر: « الصمت زين والسكوت سلامة » وسكت.

ومع ذلك فقد وفّى الاعيان والحكام المسلمين حقهم من الثناء في كل فرصة سانحة فشكر للمفتي بهاء الدين ولثريا باشا سهرهما على حفظ الامن وتجاوز حدّ اقتضابه المألوف ووصف الحفلة التي اقامها الباشا لما قلّد النيشان الهمايوني سيادة المطران جرجس شلحت فاركبه على حصانه وشيعه بالجنود والموسيقى فعرف نعوم البخاش لذوي المعروف احسانهم.

وشمل سكوته اليهود لقلة الاختلاط بينهم وبين المسيحيين وانعزالهم في عيشتهم القومية

اما ذكره المسيحيين فملؤه كتاب اليومية وقد يأتي بصورة صادقة لحياتهم واخلاقهم واعمالهم. ليس منهم من يقطن الارياف واذا قصدوا الى القرى خارج حلب لشغل تجاري او زراعي لا يعتمون ان يعودوا اليها ؛ ومن شيمهم التفطن وهم مطيعون خاضعون للسلطة فيدفعون الضرائب البدلية عن الاعناق والترابية عن الاملاك لمن أُقيم عليهم جابياً من ذويهم.

وبينما كان رعايا الدولة العثمانية في الروملي بعد اعلان خط كول خانه الهمايوني يسعون بالقوة الى تحصيل المساواة بينهم وبين المسلمين وتنشب من ثم الثورات في بلاد البلقان لعدم تحقيق امنيات الاقليات لم يكن المسيحيون الحلبيون الا راضين بحالتهم ولا يبالغون في معرفة هل تجري بالفعل التنظيمات الخيرية. وكان

البخاش ترجماناً لتلك الحالة اذا وصف اشتراكهم في افراح البلد في عيد الجلوس الهمايوني وتجنبهم اثارة المشاغب وخضوعهم للباشوات وتقديرهم تعب واخلاص من عمل في سبيل المصلحة العامة.

وقوّم البخاش بالمسرة اخبار افراحهم وملاهيهم وحياتهم القومية: فحضور روايات الخيالاتي ولعب الضومينو او الضاما او الطاولة او الطاب ودك وعمي عميش والسماع الى نوبة آجق باش او قطرميز وشرب التتون في الفليون او التنباك في النارجيلة مع القهوة في المقاهي او في البيوت؛ والجلوس في الكشك عند مرور موكب في الطريق فينظرون منه قدوم الباشا في النهار او مرور العروس او عودة الناس من سهراتهم حاملين الافنار او الفرانيس في الليل او قضاء ساعات الاصيل في الدياخانة او الليوان في الصيف او في المربع في الشتاء فيعصرون البرتقال بالمفرمة ويتناولون فنجان القهوة بالظرف الفضي ثم يردونه الى الصمدية مع شيش النارگيلة بعد انصراف الضيوف ويأكلون المأكولات العادية كلحم العجين والقديد المحشي واللوبية والمقادم والشوربة والزبيب والرز والكبة والجبن والبسطرمة وخشاف البرتقال ويشربون الخمرة والعرق ويتأنقون في طبخ الفراريج المشوية والقراص الشيبني وسائر انواع الحلوى من ثقيلة كالكرابيج والزلابية والكنافات والخفيفة كالمرصبان والبرموش والكلاسه.

وكان الرجال يلبسون الفروة والشال خجخور الوردي والقبقاب في الشتا والقميص الحسيني والقنباز «سبع ملوك» الهندي وحرير بغداد ومشالحها في الصيف وكانت النساء يتبخترن بالتنورة المقصبة وتفاصيل الباطسته او الحرير.

هي فوائد اليومية في الناحية الاجتماعية وقد يحق ذكرها في الناحيتين الطبيعية والاقتصادية ايضاً كما ان لذكر الطب والامراض والعقاقير واسماء النبات والحيوان الذي اتى في وصف حالة البلد الطبيعية له مقامه في هذا الفصل وفي الذي بعده ولكن كفى القراء ما اوردناه.

وهناك من الاعلام فوائد اجتماعية منها ان اغلب الاسماء اتت بصورة لقب لا بصورة كنية وهذا معقول نسبة لعدد الاهالي لان الكنى كثيراً ما تؤدي الى الالتباس بين شخص وشخص فترى في كتابتنا الاسماء بالالقاب عديدة واغلبها

تصطبغ بالصبغة العربيـــة ودليل على تغلّب هذه اللغة على لغات البلاد الاصلية اعني العبرية والسريانية واليونانية. ولفتت فيها نظرنا كثرة الاسماء الدالة على لون او صفة بدنية او عقلية سواء أجاءت بصيغة الموصوف او الصفة:

ابرص اخرس اديب ازرق اسود اسير اشرم اصفر اعور اكشر بطق بليط تابت جد جهامي حاتم حافظ خشفة خليل سالم سالمه شيار شعراوي شيان شيخو صادر صعب صغير صرفي ضاهر طويل ظلط عاصي عاقل عزوز غالي غانم غضبان غلام فارس فخر قرالي كرم مراش مرعب مسرة مشحور مشق مظلوم معوض مقل ملتلت ملهوف نصره هذوم.

على ان اثر اللغات القديمة لم يمح بعد من حلب واليك ما جاء من الاسماء المأخوذة من العهد القديم : ادم ابراهيم ارميا اسماعيل امون ايوب جبران حنا خاطي (او حتي) سليمان داود عازار ومنها من قديسي العهد الجديد او من اعلامه المشاهير وبعضهم يونان:

اوسان اسير اسكندر إليان انطون باسيل بربارة بهنا بهنان بولس توتل توما جرجي سابا قلاوص كسبار كيرلس ديمتريوس متري مرقس ميشيل ميليا نيقولاوس نقولا يعقوب يوسف.

ولعلّ بعض الاسماء الواردة في اليومية دلت على تعصم اصحابها بالمروبة وذكرتنا باعلام الاقدمين ومنها المركبة كعبد الاحد وعبد المسيح ومنها المتصلة بعلم الهيئة كرعد وهلال ومطر ونجم او باسماء الشهور والازمنة كرجب ورمضان من اسماء المسلمين ونصف الليل من اسماء المسيحيين ومنها ما ذكر بحدث كهدايا وفرقوعه وصفرا وحجه ومنها ما دل على آلة ككرباج وناقوز وطارة ومكانسي.

ومنها ما دل على وعاء كقطرميز وصندوق.

ومنها على عضو من اعضاء الانسان كزلعوم وسنان.

وهناك طائفة من الاسماء التبس امرها علينا ولا سبيل الى تحليلها في هذا المقام وبين يدينا منها عدد وافر مأخوذ ليس من اليومية فقط ولكن من سجلات الطوائف ايضاً. واليك ما جاء منها في كتابنا ومعرفته مفيدة لحياة البلد الاجتماعية

على ان يكشف هذا الافق لاعين القراء ناحيةً جديدة من انحاء تاريخ البلاد فيسعوا في تحليل الاعلام ودرسها ولهم فيها تفكهة وافادة:

بغدان بلطي جيتر جرنا جنادري جنجرت جوغلاط دمتي روالا رويتيني زمريا رنده زنكيه زونين سمحيري سميان شاهيات شبشول شلحت شوايا شوغا صدف صريدار صلابا عبوش عيواظ عابو فستوك قجله قدشه كركوز كلياتي كتيمر كوريخ ماروص مرشو منش ميشا ميناس نجو.

الحالة الاقتصادية

ليس من شأننا بحث الحالة الاقتصادية المطول ايام كتب البخاش يوميته والموضوع جدير بان يتناوله احد ادباء التجار الحلبيين، من لهم من خبرة الاشغال وفراغ الوقت وطولة الباع في التحرير والصبر على التفتيش عن الوثائق التي تمكنهم من القيام بتلك المهمة حق القيام ولا تزال طائفة من تلك الوثائق محفوظة في دور الناس عامةً وفي دور القناصل خاصةً. ومن المعلوم ان القنصل كثيرًا ما كان يتعاطى اعمالًا مزدوجة مستفيدة بعضها من بعض فيعمل لدولته في حقل السياسة ولنفسه في حقل التجارة ويكاتب مراجعه على الحالة التجارية والصناعية في ايامه وعلى الصرافة والزراعة وسائر ما يهم رجال السفارات في علاقاتهم الرسمية مع البلاد الموكل بامرها اليهم. وهذه المخابرات مرجع قيم لاوضاع التاريخ الاقتصادي فضلًا عن السياسي. وهناك عدد وافر من المكاتيب التجارية المحفوظة في بيوت التجار القديمة واخص منها ما اطلعت عليه في بيت السيد الياس بليط فانها مادة مشحونة بتعليمات وافرة على اسماء التجار المتازين في ذلك العهد وعلى مواد التجارة التي تعاطوها مع بلاد الافرنج او بلاد الشرق بين صادرات وواردات مع حركة الصرافة والبنك في ارسال الذهب او الاوراق المالية ذلك كله اذا ما نشر يومًا سوف يستفيد من تعليمات نعوم البخاش ويفيدها.

لم يكن البخاش تاجرًا ومهنته التعليم لكنه كان انموذجًا لعدد غير قليل من الحلبيين من يحرصون على القرش ثم يشغلونه وعلى اساس هذه المعاملة بنيت ثروة الطبقة الموسرة من الاهالي. ان موقع حلب الجغرافي جعلها منذ القدم محطة

للقافلات اياباً وذهاباً بين خليج فارس والبحر المتوسط وكان التجار يرافقون تلك القافلات فاذا حطوا في خان من خانات حلب كانوا يسلّمون ويتسلّمون الاموال واثمانها وكان الكثيرون من الحلبيين لهم مصالحهم في تلك الحركة فيتصاون باصحابها مباشرةً او بالواسطة ويأتمنونهم على مبالغ من النقود او على كميات من السلع او المحصولات وقد صارت مادةً للمبادلات في المتجر . وكان نعوم البخاش في كل شهر بسل في كل اسبوع يتقاضى شيئاً من راتب المدرسة عن التلاميذ . وكان مصروفه البيتي قليلاً لانه كثيرًا ما كان يُدعى لتناول الطعام عند الناس . وكان ينال من الهدايا من الاشة وغيرها ما كان يكفيه مؤونة النفقات الطائلة فيستغل في كل شهر دريهمات يجمعها ويشغلها بالطريقة التي وصفناها سواء اوضعها بالفائدة في مصرف من المصارف أو ارسلها بولسة الى مرسيليا او قرضها القاطرجي بين حلب وكليز . وهو دقيق في ضبط حساباته يقيد الخارج والداخل بعناية بليغة ولا يفوته تدوين اليومية الغرش ونصفه وربعه في ابتياع توافل الاشياء كالتتون او في وفاء ما يترتب عليه للسطران في النورية او للكاهن او لمرشد الاخوية في الاعياد او للقندلفت او الحارس في المواسم . ويوفق بحسن الادارة على ما يظهر الى جمع ثروة لا بأس منها طالما مكنته من تعاطي الاشغال مع بر الترك واوربا والعجم . وفي اليومية وحواشيها اثار هذه المعاطاة فهي طوراً تخصه وطوراً تخص غيره سردها على سبيل سائر ما اتى بـه من الاخبار ومنها نتعلم الخطوط التجارية التي كانت تربط حلب بالمدن التي ذكرها .

فكان فيها بين النهرين بصره وبغداد والموصل . وفي بلاد سورية ولبنان اداب وسويدية ولاذقية ودمشق وفي بلاد مصر الاسكندرية . وفي بلاد الافرنج لوندره وليفربول ومنشستر ومرسيلية وباريز وتريسته وليفورنا . وفي بر الترك ادنه وازمير واسكندرونه واسلامبول وانطاكية وانقره وبانياس وترسوس وديار بكر وعينتاب وقونية وكلز وماردين ومرسين ومرعش وماطية واليبرقلي .

تلك هي الامكنة والبلدان المرتبطة مع حلب بالتجارة واليك رجالها من كانوا يتجشمون المخاطر ويغامرون في الاسفار الى ان يحطوا رحالهم في حلب فيستوطنوها فيغلب عليهم لقب البلد التي صدروا منها او اتصلوا بها اشد الاتصال

وذكرهم يكشف لنا عن مضمنات حركة تنقل الاهالي في الزمان الماضي واليك اسماءهم:

ادلبي ارمني اسلامبولية اسطنبلي انطاكي بربري بشرآني بغدادي بندقي بودي تركماني ترمذي حضاني حمصي دويجي ساحلاني شامي عبديني عجم عجمي عكاوي كردي كلدانيّ كلزي كندي لادقاني ماردنلي معري مقدسي موصليّ هندي هندية.

فترى انهم أتوا من الشرق ومن الغرب ومن الشمال ومن الجنوب عسى ان يوفق الكتبة يوماً بفضل اكتشافات اثار جديدة الى تحقيق زمان تزوح العائلات المذكورة والعلاقة بينها وبين حوادث التاريخ العامة.

والمثل في ذلك انك اذا فطنت الى كون الكثيرين من مسيحيي المدن المصرية ينتسبون الى اصل سوري دخلوا ارض الفراعنة في سياق القرن الماضي فهمت ان لتزوحهم سبباً اما في حوادث السنين المشؤومة التي الجأت عدداً غير قليل من المسيحيين الى هجر بلادهم الشامية واما في النهضة التي اخذت ترفع البلاد المصرية منذ عهد محمد علي الى مستوى نجاحها العصري فجذبت اليها مئات المهاجرين من بلادنا مَن تصدوها في طلب الرزق. وكذلك ربما افادتنا الايام عن الاسباب التي دخلت من اجلها مدينة الشهباء أسر اتت من بر الترك والعراق ولبنان واوروبا واظهرت الصلة بين قدوم تلك الاسر الى حلب وبين الحوادث العامة من حرب او مشروع تجاري او صناعي كتبدل الدولة بدولة وانتقال الحكم من المماليك الى بني عثمان او فتح طريق رأس رجاء الصالح او ثقب ترعة سويس فاجتذاب او ابتعاد التجار الى حلب وعنها. والمادة اوسع من ان تشملها هذه الصفحات ولها علاقاتها في اثار البلدة من خانات ودور وحمامات الى غير ذلك مما جاء ذكره في مؤرخي حلب الاقدمين كابن شحنة وابن العديم.

وإن تبويب الاسماء اخذاً بتحليلها بالمبنى والمعنى ادّى بنا الى معرفة ارباب الصناعة والمهن والحرف نكتفي بضرب لائحتها وهي باب مفتوح على درس ناحية خاصة من نواحي حلب الاقتصادية:

بحاش بردخجي بصال تابر توتنجيّ جانجيّ حائك حداد حفّار حكيم (طبيب)

حلاق خياط دالاتي دباغ دقاق دلال رباط سقال سمان شاشاتي شقال صاجاتي عبجي عملجي مشاطي طرازي طحان طنبرجي عرقتنجي مال غزال فتال قصاب قصار قهواتي كبابه كتابه كرا الخوابي كيال مداراتي مصفي معمرجي معمرباشي نجار نقاشه وكيل . وكذلك اصحاب الوظائف وكلها كنائسية خوري شدياق شماس قسيس قس نصرالله قندلفت .

ويلاحظ في مجموعة هذه الاشياء مصداق لقول المؤرخين عن الهيأة الاجتماعية ان الغير المسلمين في الدول الاسلامية كانوا يتعاطون الصناعة والتجارة والصرافة والمهن الحرة .

وفي كتابنا طائفة من الاسماء الاعجمية المقنوعة الاصل فمنها التركية آچق باشا الطنجي بازرجي بياز اوغلي بشخنجي زنبكلي دوجه جي اوغلي سكران شوكتلي كورنلي يغمور .

ومنها فارسية ابراهيمشاه وخاتونشاه وطهماز .

ومنها ارمنية ازوتين خاجيك خجدور سوكياس كركور كيورك وانيس

وهي دليل على وفرة عدد الاجانب الذين اقاموا في حلب ولهم فيها مصالح اغنتهم عن البقاء في بلادهم الاصلية ومنهم الافرنج من الانكليز وفرنسيس والمان وطليان ويونان وغيرهم :

باركو بتراكي بيجوتو برتران برتيه برنابا بنتيفوليو بوبولاني بوخه بودبار بوشتي بولاكي بديه بيليليوس بيوس تومازيني جاني جليا جوفروا جنبير او شنبير جنو جوان جوستيني جوليان جيس دوناطو رينا ست سكين شاتري دلافوس شستان صولا فلاق فيلكروز فين تباليار كاتينكه كتفاكو كوبا كوندلف مرتين مركوبولي مريانا موليناري وغيرها مما لا مقام الى تبويبها وتفسيرها فنلقي بسلسلتها بين ايدي القراء عسى ان يوفق غيرنا الى بحثها واستنتاج فوائدها .

ولله الحمد في البدء والختام .